الوجهة السّياحيّة لمدينة قسنطينة وعلاقتها بالنّظام الكولونياليّ الرّأسماليّ: قراءة في الدّلائل الفرنسيّة للمدينة

The Tourist Destination of Constantine and its Relationship to the Capitalist Colonial System : A Reading in the French City Guides

تاريخ الاستلام : 2022/06/08 ؛ **تاريخ القبول :** 2022/11/12

ملخص

إنّها الخاصّيّة الثّانية للمدينة كما يقول "مارك كوت": «هي من أجمل المدن الجزائريّة، إجتمع التّاريخ فيها مع الموقع؛ ليصنعا المدينة».

عندما دخل الفرنسيّون قسنطينة عام 1837، إكتشفوا مدينة تطفو على صخرة تعزل مضيق "واد الرّمال"، ومظهرا حضَريّا يحمل علامات مبادئ تخطيط المدن العربيّة-الإسلاميّة، ولقد ترافقت التّدخّلات على المجال الحضَريّ مع إنشاء مؤسّسات جديدة لخدمة المقيمين الجدد.

إنّ هذا المقال عبارة عن قراءة تحليليّة للدّلائل الفرنسيّة لمدينة قسنطينة، والّتي تُظهر أنّ المدينة كانت موجّهة لتلعب دورا سياحيّا أملاه النّظام الإستعماريّ الرّأسماليّ، الّذي أراد تأسيس صناعة سياحيّة بالإعتماد على مقوّماتها الطّبيعيّة والتّاريخيّة.

الكلمات المفتاحية: قسنطينة؛ سياحة؛ نظام كولونياليّ.

* كريمة بن درّاج

جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة 2، الجزائر.

Abstract

This is the second originality of the city as Marc COTE says: one of the most beautiful cities in Algeria; history has combined with the site to make the city.

When the French entered Constantine in 1837, they discovered a town perched on a rock isolating the Gorges du Rhummel, and an urban landscape that bears the mark of the fundamental principles of Arab-Muslim urbanism.

The interventions on the space were accompanied by the establishment of new institutions supplanting the original organization by the transposition of a new system of administration at the service of the occupants.

This essay is an analytical reading of the guides of the city of Constantine established by the French authorities, which show that the city was destined to play a tourist role dictated by a capitalist colonial system that wanted to found a tourist industry by relying on all its potentialities, natural and historical.

Keywords: Constantine; Tourism; Colonial System.

Résumé

C’est la deuxième originalité de la ville comme dit "Marc COTE" : « elle est une des plus belles villes de l’Algérie ; L’histoire s’est conjuguée avec le site pour faire la ville ».

Quand les Français sont entrés à Constantine en 1837, ils ont découvert une ville perchée sur un rocher isoler les gorges du "Rhummel", et un paysage urbain qui porte la marque des principes fondamentaux de l’urbanisme arabo-musulman.

Les interventions sur l’espace se sont accompagnées de la mise en place d’institutions nouvelles supplantant l’organisation originelle par la transposition d’un nouveau système d’administration au service des occupants.

Cet essaie est une lecture analytique des guides de la ville de Constantine établies par les autorités françaises qui montrent que la ville était destinée à jouer un rôle touristique dicté par un système colonial capitaliste qui voulait fonder une industrie touristique en s’appuyant sur toutes ses potentialités naturelles et historiques.

Mots clés: Constantine, Tourisme, Système colonial.

* Corresponding author, e-mail: kbenderradj@gmail.com

© جامعة الاخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر 2022.

ا - مقدمة

لاتزال المدن منذ القدم المنشأ الأوّل للدّول وتطورّها، والمقياس لدرجة تحضّرها، فهي المرآة العاكسة للبعد الإجتماعيّ والثّقافيّ والإقتصاديّ، وكذا السّياسيّ للمجتمع، والميدان الأفضل لأيّة دراسة علميّة، إذ لعبت دورا كبيرا في تأدية وظائف عديدة ومتنوّعة للإنسانيّة وعبر كافّة أنحاء العالم.

من هذا المنطلق، نجدها قد قطعت أشواطا كبيرة في التّغيير والتّحوّل لكلّ هياكلها وأنشطتها، وهذا ما جعلها تمرّ عبر عدّة أشكال ومراحل، اِكتسبت من خلالها خصائص ومميّزات تنوّعت حسب الظّروف الّتي مرّت بها السّاحة الدّوليّة، خاصّة تلك الحروب والثّورات الّتي تعرّضت لها، والّتي أكسبتها عدّة مميّزات، مثلا: الثّورة الصّناعيّة والآثار الّتي تركتها على المدن، والتّغيير الجذريّ الّذي أحدثته في البنى الأساسيّة لها، هذه التّغييرات لم تمسّ المدن بمفردها، بل مسّت أيضا المجتمعات الّتي تقطنها، و تركت بصماتها على نمط معيشتها، بإعتبار أنّ الإنسان بحاجة ماسّة لكلّ ما تحتويه المدن من نشاطات.

وتميّزت المدن الجزائريّة - في مرحلة ما قبل الإحتلال الفرنسيّ - بنوع من الإكتفاء الذّاتيّ واللّامركزيّة في علاقاتها بأقاليمها في المجالات الإقتصاديّة والتّجاريّة، إلّا أنّ هذه العلاقة سرعان ما كُسِرَتْ من طرف المستعمر، الّذي وجّه الشّبكة العمرانيّة في الجزائر ووسطها الرّيفيّ والطّبيعيّ لخدمة الاقتصاد الفرنسيّ، وللتّذكير، فإنّ الإطار العامّ للشّبكة العمرانيّة الجزائريّة - الموجود حاليّا - كان موجودا قبل الاحتلال الفرنسيّ، متمثِّلا في المدن ذات الأصل الجزائريّ، لكن لا ينبغي أن ننكر مساهمة المستعمر في تنمية الهيكلة الحضَريّة بالجزائر، حسب أغراضه المسطَّرة في مجال الإستيطان الأوروبّيّ من جهة، وتوجيه الشّبكة العمرانيّة وهياكلها الأساسيّة لخدمة الإقتصاد الفرنسيّ من جهة أخرى، إذ نجد الإدارة الفرنسيّة وضعت مخطّطات عمرانيّة لمختلف المدن الجزائريّة، سواء منها السّاحليّة أو الدّاخليّة، بل أُضيفت مدن جديدة، كانت عبارة عن قلاع ومراكز عسكريّة، وُسِّعت لتصبح مدنا عصريّة على النّمط الغربيّ لإستقبال الوافدين، مثل: مدينة سطيف، باتنة وسيدي بلعباس.[1]

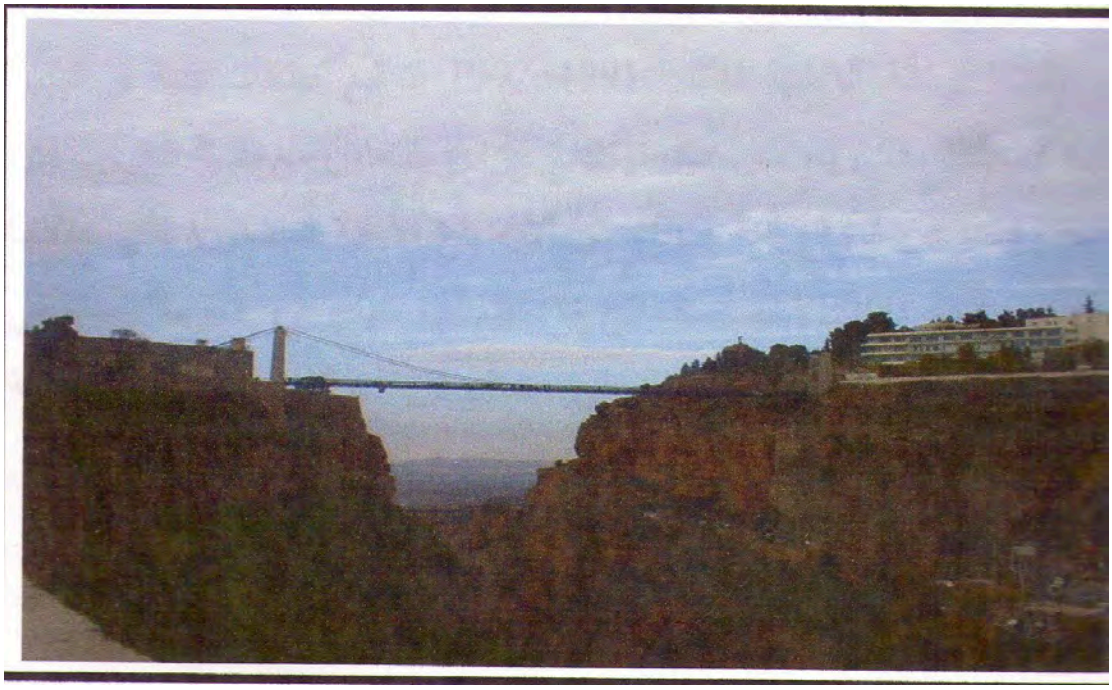

II- قسنطينة الوجهة السّياحيّة:

تُعتبَر مدينة قسنطينة من أقدم مدن العالم، ولعلّ أهمّ ما يميّزها كونها عمّرت نحو 3000 سنة من التّاريخ دون اِنقطاع، وفي موضع واحد هو الصّخرة الّتي تقع فوقها، وتذكر المراجع التّاريخيّة أنّه منذ حوالي مليون سنة بدأ تموقع أوّل إنسان سكن قسنطينة بالمرتفعات المحيطة بها لإعتبارات أمنيّة، فأقام بادئ الأمر بمنطقة "المنصورة" و"جبل الوحش" وبكهوف "سيدي مسيد"، إذ اِكتُشفت قطع وأدوات أثريّة تدلّ على وجود حياة بشريّة في تلك المناطق، يرجع تاريخها إلى هذه الحقبة.

ولمّا كان الموقع من أهمّ الضّوابط المؤثّرة في دراسة المراكز العمرانيّة - لما له من تأثير مباشر في حياة الإنسان واِستقراره في أماكن محدّدة، ولإعتماد المدن في علاقاتها الخارجيّة على المناطق المحيطة بها – فإنّ أفضل المواقع هي الّتي تنسج أكبر قدر ممكن من تلك العلاقات، وتعمل على ضمان تطوّرها وديمومتها،[2] وفي هذا يقول "مارك كوت" "Marc Cote": «... إذا كانت هناك مواقع حضَريّة تلعب دورا ثانويّا؛ لأنّها منبسطة أو منسجمة، فموقع قسنطينة هو الكلّ ...».[3]

ومن أهمّ المميّزات البارزة للموقع الإقليميّ لقسنطينة وقوعها ضمن إقليم التّلّ في الشّمال، وإقليم الهضاب العليا في الجنوب، هذا ما جعلها تحظى باهتمام التّجّار القادمين من الشّمال والجنوب، وأصبحت على مرّ الأيّام سوقا هامّة تلتقي فيها منتجات الشّمال بمنتجات الجنوب، ممّا شجّع على اِستقرار العديد من التّجّار الّذين فضّلوا النّزول بها ما أكسبها ثقلا سكّانيّا مُعتبَرا، اِنتهى بتحوّلها إلى عاصمة الشّرق منذ الإحتلال الفرنسيّ.

ولا يمكن عزل الحديث عن قسنطينة "الوجهة السّياحيّة" عن التّاريخ السّياحيّ للجزائر ككلّ؛ لأنّها جزء منه، فالثّروات السّياحيّة الجزائريّة اِكتُشفت قبل الحرب العالميّة الأولى، إذ أنّ التّدفّق الكبير لمجموعة من السّيّاح الأجانب جعل المستعمر يفكّر - وبجدّيّة - في خلق وإنشاء الهياكل اللّازمة والمستجيبة لذوق هذه الفئة من السّيّاح،[4] ولقد عُرفت هذه الفترة بالدّورات السّياحيّة الصّحراويّة الكبرى، والّتي خصّت فئة معيّنة من السّيّاح أو ما يُعرف بـ "السّيّاحة الرّاقية"، والّتي اِمتدّت بين سنتي 1939-1945.

وبالعودة إلى السّيرورة التّاريخيّة لظاهرة السّياحة في الجزائر، نجد أنفسنا نبدأ - كما سبق الذّكر - من التّواجد الإستعماريّ الفرنسيّ؛ «حيث تأسّست سنة 1897 لجنة الإقامات الشّتويّة، وقد ساعدت بدعايتها في تنظيم الجولات، وفي سنة 1916 تمّ إنشاء لجنة السّياحة، والّتي كان من شأنها المساهمة في الجهود المقدَّمة من طرف نقابة المبادرة، وفي 1918 أقيم ديوان الدّعاية ولجنة خاصّة بالحفاظ على المناطق السّياحيّة، وفي سنة 1919 تمّ تأسيس فيدراليّة سياحيّة تجمع ما بين العشرين (20) نقابة الموجودة آنذاك، والّتي كانت تتلقّى مساعدة ماليّة، كما تأسّست فيدراليّة الفندقة، وفي السّنة نفسها نُظِّمت عدّة جولات بالصّحراء، وفي سنة 1931 تأسّس الدّيوان الجزائريّ للحركة الإقتصاديّة والسّياحيّة؛ حيث اِستقطبت الطّبقات الإجتماعيّة الثّريّة.

بعد الحرب العالميّة الثّانية (1945)، وبعد التّشريع الإجتماعيّ الخاصّ بالتّسلية، ظهر نوع ثانٍ من مستهلكي السّياحة، وهم السّيّاح ذوو المرتّبات الضّعيفة، والّذين ظهر على إثرهم نوع آخر من السّياحة خاصّ بالإقامات، وآخر خاصّ بالجولات ...».[5]

المعالم الأثرية

الأقواس الرومانية

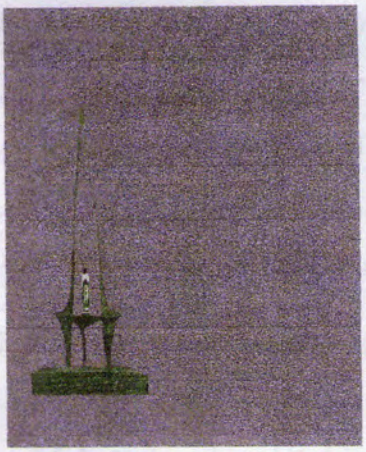

سيدة السلام

نصب الموتى الفرنسيين

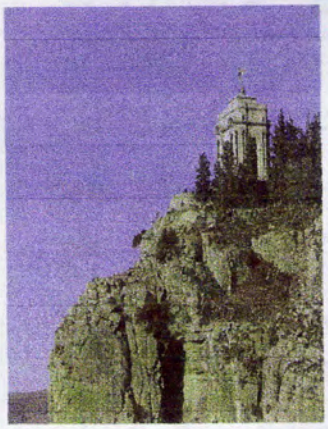

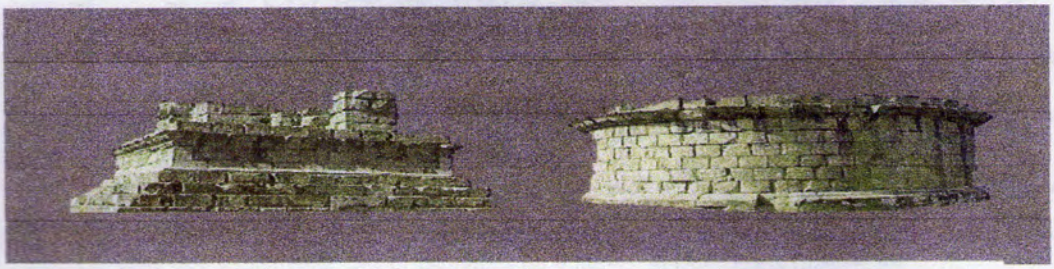

ضريح ماسينيسا

ضريح لوليوس

المصدر : مديرية السياحة لولاية قسنطينة .

سُمّيت قسنطينة - حسب دليل المدينة الفرنسيّ لسنة 1934 - بـ "ملكة السّياحة" للشّمال الإفريقيّ؛ لأنّها صُنّفت كمحطّة سياحيّة بمرسوم 31 جانفي 1924،[6] ويؤكّد ذلك رئيس بلديّتها "مورينو" "Morinaud" قائلا: «يُعرَف الآن وفي كلّ العالم موقع قسنطينة المتفرّد، وتموضعها فوق الصّخر المسيطر على الآفاق المجاورة، والّتي لا يمكن أن تضاهيها، ويتكاثر السّيّاح القادمون إليها سنويّا ...»،[7] ثمّ يعلّل تهرّب زوّار المدينة من المكوث فيها إلى نقص الفنادق الّتي بإمكانها اِستقبال هؤلاء السّيّاح؛ حيث يقول: «إنّنا لا نتحدّث عن هذه الفئة من الزّبائن الأغنياء المُستقبَلة دون عناء في فنادق المدينة الفاخرة، أين تجد كلّ الرّفاهية المطلوبة، وحتّى هذا النّوع من الفنادق لم يعد كافيا، بل عن الفئة ذات الإمكانيّات المتوسّطة، الّتي لا يمكنها النّزول بهذا النّوع من الفنادق الفخمة».[8]

كما أشار "مورينو" "Morinaud" إلى الكتيّبات والدّلائل الموجودة والموضوعة تحت تصرّف زوّار المدينة، والّتي يراها قديمة ومنقولة إحداها عن الأخرى بكلّ أخطائها، ولذلك سعى لوضع دليل المدينة، والّذي اِستهله بالخريطة الموضِّحة والمُبرزة لموقع قسنطينة، وللمدينة كمركز سياحيّ (الخريطة).

إنّ ما جاء على لسان رئيس بلديّة قسنطينة - كأهمّ الفاعلين في سياسة المدينة - لَأكبر دليل على أنّ الوجهة الوظيفيّة للمدينة كانت سياحيّة محضة، اِرتبطت بطبيعة النّظام الكولونياليّ الرّأسماليّ، وبما أفرزه من تمثّلات، وهو ما سنسعى لإبرازه من خلال قراءتنا لثلاث دلائل للمدينة خلال الحقبة الإستعماريّة؛ لنوضّح كيف أراد المستعمر اِستغلال مدينة بحجم قسنطينة بتاريخها وجغرافيّتها ليُقيم صناعة سياحيّة، نفشل نحن اليوم في تحقيقها رغم هذا التّراكم.

III- الحقائق التّاريخيّة لمدينة سياحيّة:

1. قراءة في دليل مـدينة قسنطينة لسنة 1930:

وضعه P. Alquier؛ عامل بأرشيف محافظة قسنطينة، مكتبيّ ومحافظ المتحف، ولقد جاء هذا الدّليل في 18 فصلا، خُصِّصَ الفصل الثّاني عشر للجانب السّياحيّ في المدينة؛ حيث عنونه بـــ: "طـــرق الدّخول، المسار السّياحيّ".

يبدأ واضع الدّليل بسكّة الحديد، وبِاتّجاهات القطار من وإلى قسنطينة، ونفس الشّيء بالنّسبة لشبكة الطّرق، ثمّ ينتقل إلى تقسيم المسار السّياحيّ إلى 6 أقسام:

المسار الأوّل: حيّ السّكّان الأصليّين Quartier indigène

المسار الثّاني: حرفيّو المدينة Artisans indigènes

المسار الثّالث: المساجد وقصر الباي Mosquées et palais du Bey

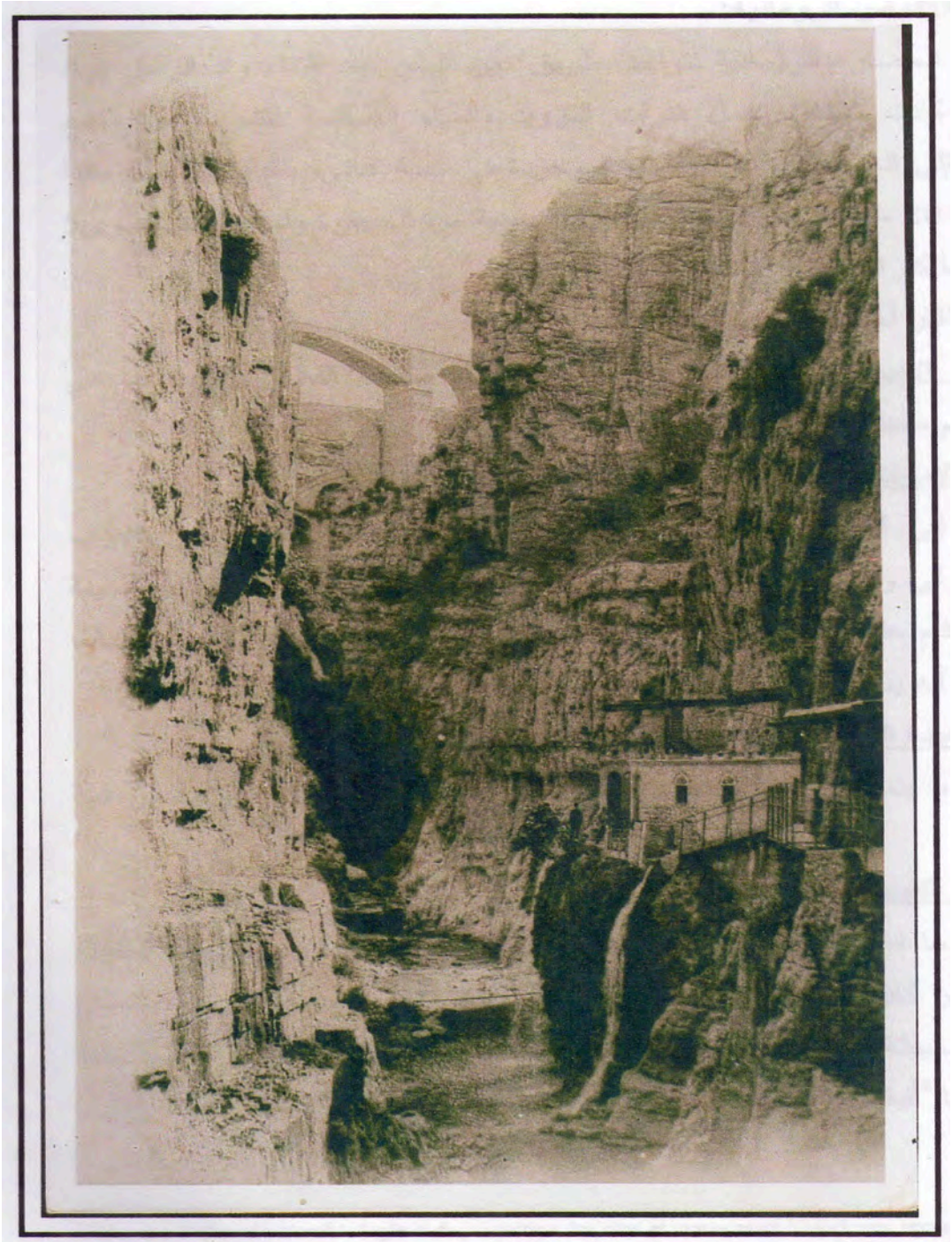

درب السواح

المسار الرّابع: المتحف الطّبيعيّ Boulevard de l’abîme
المسار الخامس: وادي الرّمال Le ravin
المسار السّادس: الضّواحي La banlieue
كما اِحتوى هذا الفصل على مجموعة من صور "وادي الرّمال" و"درب السّيّاح" والجسر المعلّق بـ "سيدي مسيد" وصورة الشّارع الوطنيّ La rue Nationale "طريق جديدة" سنة 1929.

أمّا الفصل الخامس عشر، والّذي عنونه بـ "إرشادات عمليّة" "Renseignements pratiques"، فيبدأ بمختلف الوكالات البحريّة والأسفار Agences maritimes et de voyages:

- المجموعة الدّوليّة لعربات الأسرّة Compagnie Internationale des wagons-lits؛
- المجموعة العامّة "ترانس أتلنتيك" Compagnie générale transatlantique؛
- المجموعة البحريّة المختلَطة (مجموعة طواش) Compagnie de navigation mixte؛
- خطوط النّقل المختلفة عبر حافلات النّقل الجماعيّ Autobus؛
- مواقف السّيّارات Automobiles- Garages؛
- ممثّلو السّيّارات Automobiles représentants؛
- الحمّامات العصريّة والتّقليديّة Bains et bains mores؛
- البنوك؛
- المقاهي.

الفنادق والمطاعم:

- نزل ترانزات Hôtel transatlantique؛
- نزل سيرتا؛
- النّزل الكبير؛
- نزل باريس: تدفئة مركزيّة، ماء بارد وساخن في الغرف، حافلة نقل لكلّ القطارات؛
- نزلD'orient et Saint George؛
نزلTerminus.

الفنادق المؤثَّثة دون مطاعم:

- نزل الجزائر؛
- نزل دارمون Damrémont؛
- نزل فرنسا؛
- النّزل المثاليّ Idéal؛
- النّزل المتروبول Métropole؛
- نزل نيس Nice؛
- نزل العائلة؛
- نزل Rouvière؛
- نزل الصّحراء؛
- نزل المسرح.

قُدّمت هذه الفنادق بعناوينها وأرقام هواتفها، كما يضيف الدّليل بعض المطاعم والحانات بالعناوين وأرقام الهواتف أيضا، ويقترح في فصليْه الـ 17 و18 المعالم التّاريخيّة والمواقع الطّبيعيّة والمعالم ذات الصّبغة الفنّيّة، بادئا بالمعالم التّاريخيّة والآثار الميقاليتيّة من دولمان ومقابر، ويحدّد طرق الوصول إليها، ثمّ ينتقل إلى المعالم القديمة، فالحديثة الواقعة داخل محافظة قسنطينة، أمّا اللّافتة السّياحيّة الخاصّة بمدينة قسنطينة فتحمل ما يلي:

- مسجد سيدي الكتاني؛
- مسجد "سوق الغزل"؛
- المدرسة القديمة مدرسة "صالح باي"؛
- الجامع الكبير؛
- المنابع الحمويّة والحمّامات؛

- بقايا وآثار جسر رومانيّ؛
- بقايا وآثار الجسر الرّومانيّ الّذي أعاد بناءه صالح باي؛
- زاوية القصبة من جهة المكان العالي المسمّى "كاف شكارة" (إرتفاع 182متر)؛
- آثار جسر رومانيّ يقطع الرّمال على حافة "سيدي راشد"؛
- الجهة الأخرى من واد الرّمال، بقايا جسر كان يحمل الماء لسيرتا من "سيدي مبروك" (الأقواس الرّومانيّة)؛
- أطلال مدينة رومانيّة (تيديس)؛
- المسرح البلديّ؛
- قصر "الباي"؛
- جسر "باب القنطرة"؛
- ضريح "سيدي راشد"؛

يقول P.Alquier واضع هذا الدّليل: «إذا ما نظرنا إلى عدد السّكّان الأوروبّيّين، فقسنطينة هي الثّالثة بعد الجزائر ووهران، وبالنّسبة لعدد السّكّان الأصليّين، فهي الثّانية بعد الجزائر، إنّ هذه المقاربة بين الفئتين تعطي قسنطينة شكلا خاصّا جدّا، فهي المدينة الأكثر محافظة على قيمها، عاداتها، لباسها ومنازلها، وهو ما يجعلها أعرق مناطق الجزائر»،[9] ثمّ يواصل: «فمن المستحسن أن تَعرِف الصّناعة الفندقيّة فائدة فنادق جديدة تسمح للسّيّاح بالإقامة مدّة أطول»،[10] وهنا يجدر التّساؤل عن الفئة الإجتماعيّة الّتي إستطاعت أن تهيمن على هذه الصّناعة، والّتي تسمح لها طبعا بإمتلاك ثقافة معيّنة تخدم طبقة معيّنة، هذا النّقص الّذي يؤكّده واضع هذا الدّليل في أوّل مقدّمته؛ حيث يتأسّف لمدينة قسنطينة الّتي لا تملك ما يكفي من الفنادق لإستقبال الفئات المختلفة للسّيّاح، «فحتّى الفنادق الرّاقية لم تعد كافية».

ثمّ يقول في آخر التّقديم: «إنّنا نقدّم هذا الدّليل للسّيّاح، وكذلك لأبناء قسنطينة الّذين يجهلون الكثير عن هذه المدينة الّتي يسكنونها»،[11] فهل هو الدّليل على غياب ثقافة سياحيّة لدى أبناء المدينة، وسعي ساستها والقائمين على شؤونها لإعداد العنصر البشريّ لتأدية دوره في الوظيفة السّياحيّة لمدينة قسنطينة، والتّأسيس لخدمة سياحيّة لمختلف الطّبقات الإجتماعيّة الأوروبّيّة المستفيدة حديثا من حقّ العطلة؟

2. قراءة في دليل مدينة قسنطينة لسنة 1934:

للإشارة، فإنّ هذا الدّليل خالٍ من أيّ تاريخ أو جهة يُنسب إليها، على عكس سابقه، لكن من خلال التّدقيق يمكن إرجاع تاريخه إلى سنة 1934، ففي جملة خاصّة بمتحف سيرتا يقول صاحبه: «متحف قسنطينة له 3 سنوات من الوجود»، ومتحف المدينة أُسّس سنة 1931 في الذّكرى المئويّة لإحتلال الجزائر.

يكتب "غي دو موباسون" "Guy de Maupassant" في مقدّمة هذا الدّليل: «هذه قسنطينة المدينة الظّاهرة، المدينة العجيبة الّتي يحرسها وادي الرّمال المذهل، ويحيط بقدميها كثعبان، إنّه وادٍ من حديد، يجري في أعماق هوّة حمراء، وكأنّ لهبا أبديّا أحرقها ...».[12]

ثمّ يبدأ واضعه (الدّليل) موضّحا أنّ القدماء إختاروا موقع الصّخرة لأنّه صحّيّ، ساعد على إستقرار الكثير من الحضارات الّتي تشهد عليها الكتابات الموجودة بمتحف المنحوتات بـ "حديقة الجمهورية" "Square de la République" - ملحقة متحف "غوستاف مرسييه" "Gustave Mercier" (الإسم القديم لمتحف سيرتا)، ليتحدّث عن نشاط المدينة وحيويّتها وجوّ الفرح الّذي تعيشه دوما، خاصّة خلال ليالي الصّيف، وعن الرّياضيّين الّذين بإمكانهم ممارسة ألعابهم المفضّلة، فحتّى في فصل الشّتاء بإمكانهم إجراء تمارين السّباحة بمسبح "سيدي مسيد" الكبير، الّذي زوّدته البلديّة بمطعم، في إنتظار إستكمال مسبح ثانٍ، ثمّ ينتقل بعدها للحديث عن المسرح، الكازينو، المتحف، مكتبة البلديّة المهمّة جدّا، النّوادي، قاعات المحاضرات والفضاءات الدّينيّة

لمختلف طوائف المدينة: يمارس سكّان المدينة حفلات ذات جاذبيّة مذهلة بالنّسبة للسّيّاح، وأكثرها أهمّيّة "عيد الرّبيع" و"عيد النّسور"، أو ما يُعرف محلّيّا بـ "زردة بولجبال والغراب".

بإمكان السّيّاح الإقامة في قسنطينة لنيل قسط من الرّاحة؛ حيث الحدائق المزهرة، الفنادق الجيّدة والكازينو، كما يمكن التّنقّل بسهولة إلى المدينتين الذّهبيّتين "تيمقاد" و"جميلة"، فقسنطينة - مع إنهاء شبكة الطّرق - أصبحت نقطة اِنطلاق كلّ الرّحلات نحو الأوراس، بفلكلوره الّذي سينال حتما إعجاب زوّاره.

أمّا الوصول إلى قمّة "سيدي مسيد" - أين أقيم الضّريح المخلِّد لذكرى الّذين اِستشهدوا من أجل الوطن - فيُشْعِرُ هؤلاء السّيّاح بحالة من الذّهول، هذه القمّة "وادي الحامّة"، جبال "القبائل الصّغرى" الّتي تغطّي الأفق (عشّ النّسر) المبنيّ على جانب صخر "سيرتا الفخورة"، "كودية عاتي"، أين لقي الجنرال "داريمون" "Damrémont" ميتته المشرّفة، وأين ترتفع عمارات جميلة، إلى جانب كنيسة "Sacré Cœur"، بروعة هندستها وشكلها، والمتحف الّذي يشبه الفيلّا الرّومانيّة، لن يندم زائر المدينة إذا ما تسلّق جبل "سيدي مسيد" لأداء حجّ مشرّف لذكرى كلّ جنودنا الّذين سقطوا إبّان الهزّة العنيفة لسنتي 1914- 1918.

ثمّ يذهب الدّليل للحديث عن رئيس بلديّة قسنطينة "Maurinaud"، واصفا إيّاه بـ "صديق السّياحة الحميم"، وعن جسور المدينة الممتدّة فوق "وادي الرّمال"، والمدهشة للزّوّار السّائحين، فجسر "Perré Gaux" أو"ملّاح سليمان" حاليّا، يسمح بدخول الشّارع العربيّ (المدينة القديمة) بلمسته الشّرقيّة، بشكل لا مثيل له بالجزائر، والمتوقّف فوق هذا الجسر سيُبهره منظر الصّخر المنحوت، ويمكنه أيضا رؤية ما تبقّى من الجسور الّتي وضعها الرّومان.

الجسر الآخر يقع عند مخرج المغارات، أقواسه الصّخريّة موضوعة على بعد أربعين مترا خلف الشّلّال، بطريقة تُبرِز المناظر الجميلة والمصعد الكهربائيّ لهذا الجسر، الّذي يسمح بزيارة حمّامات "سيدي مسيد" دون عناء.

نقطة النّزول - حسب هذا الدّليل - هي المكان الأسطوريّ "كاف شكارة"، الّذي شهد رمي المحكوم عليهم بالإعدام خلال التّواجد العثمانيّ، ويرى كاتبه أنّ فضل فرنسا كبير في تحرير وحماية سكّان قسنطينة من رميهم من مثل هذه الأماكن العالية.

بعدها يعطي الدّليل نبذة تاريخيّة عن المدينة والمدينة القديمة وسكّانها، ويشجّع على التّجوال بأزقّتها: «لا يمكن النّدم على التّجوال بأزقّتها الملتوية، ومشاهدة فتياتها الصّغيرات بفساتينهنّ الطّويلة الزّرقاء أو الحمراء، وحواجب مصبوغة، وأظافر بلون الحنّاء، وهنّ يلعبن سعيدات، لشعورهنّ أنّهنّ موضع إعجاب الزّوّار، أمّا المقهى العربيّ فهو المهرب من التّعب، والمكان الّذي تُطلَب فيه الرّاحة والتّرفيه، بالإستماع إلى حكايات اليوم وأقاصيص الماضي، وكذلك موسيقى ومغنّيي المدينة».[13]

ويهتمّ الدّليل بإبراز صور للمدينة القديمة و"عيد النسور"، ثمّ ينقلنا إلى متحف وقصر "الباي"، صور للأقواس الرّومانيّة، غابة "جبل الوحش"، وبعض الرّياضات الممارَسة، مركّزا على "نادي الطيران القسنطيني" "constantinois Aéroclub"، ويفيد الزّائرَ بقائمة الوسائل المختلفة للتّنقّل إلى المدينة:

- سكة الحديد
- الطّرق البرق؛
- الطّائرة من تونس إلى عنابة؛
- الباخرة يوميّا بين مارسيليا والجزائر العاصمة؛

ثمّ يعود ليأخذنا إلى الصّرح المعماريّ الّذي يشكّله الكازينو البلديّ، والّذي يصنع اِنبهار أيّ سائح للمدينة؛ حيث يرتفع برجه على 33 مترا، فارضا هيكله الجميل على ساحة "Lamoricière" (قائد الحملة الفرنسيّة على مدينة قسنطينة سنة 1937)،

كنقطة فصل بين المدينة القديمة والشّوارع الأوروبّيّة الجديدة، بالقرب من الحدائق العموميّة الشّبيهة بمدن الماء الكبرى، ويذكر فنادق المدينة وعددا من المطاعم والحانات:

- نزل سيرتا؛
- نزل ترانز أتلانتيك؛
- نزل باريس؛
- نزل D'orient et Saint George؛
- نزل الميتروبول؛

نزل الكون L'univers؛

نزل Lyonnais.

الملفت في هذا الدّليل هو اِحتواؤه على صفحات إشهاريّة لمختلف الفنادق، وبعض المطاعم، وحتّى "سينما الحمراء" "L'Alhambra"، وهو دليل آخر على وجود حركيّة سياحيّة؛ حيث يواصل في اِقتراح معالم للزّيارة، كقصر "الباي"، مسجد "سوق الغزل"، "الجامع الكبير"، مسجد "سيدي الكتّاني"، "سيدي لخضر" و"سيدي راشد"، وكذلك جسر "القنطرة"، جسر "سيدي مسيد"، "جسر Pérégaux ("ملّاح سليمان" حاليّا)، ضريح الأموات والمتحف.

أمّا الجولات السّياحيّة فيبدؤها بصخرة "الشّهداء"، "وادي الرّمال"، من خلال "درب السّيّاح"، حظيرة "المشتلة"، غابة "جبل الوحش"، "المريج"، "الأقواس الرّومانيّة"، "سيدي مسيد"، و"عين الباي" وكذلك "صالح باي" و"شطّابة".

صور عن إشهار الفنادق و المطاعم لدليل المدينة 1934 .

وكما يقول الدّكتور "السّيّد الحسيني": «ظلّت المدن عبر تاريخها مركزا للاِتّصال، ومصدرا للتّغيّر الثّقافيّ، وموطنا للمواهب الخلّاقة»،[14] وهو ما برز في هذا الدّليل، من خلال دور التّكنولوجيا في المدينة، والقصد من ذلك ليس فقط تطوّر الأساليب الإنتاجيّة، بل أيضا المعرفة المنظِّمة، الّتي تؤدّي إلى التّخصّص وتقسيم

العمل، وعليه، هل يمكن اِعتبار الإشهار البارز في هذا الدّليل قفزة جديدة في السّياسة السّياحيّة المربوطة بالنّظام الكولونياليّ الرّأسماليّ؟ بِاعتبار أنّ الظّروف السّياسيّة

إشهار لسينما لالمبرا .

المصدر : دليل مدينة قسنطينة ، لسنة 1934 .

المرتبطة بالظّواهر الحضَريّة شرط ضروريّ لفهم ديناميكيّة التّحضّر والإيديولوجيّات المختلفة المرتبطة به.

3. قراءة في دليل مدينة قسنطينة 1959:

وُضع هذا الدّليل تحت الرّعاية السّامية لرئيس البلديّة ومفوّض الشّرطة العامّ، وطُبع لفائدة الخدمات الإجتماعيّة للتّعاضديّة العامّة للأمن الوطنيّ بقسنطينة، وإحتوى على تسعة (9) فصول، عُنْوِنَ السّادس منها بـ "السّياحة" "tourisme"، وأوّل ما يتعرّض له هو تاريخ المدينة بمراحله المختلفة: ما قبل التّاريخ، التّاريخ القديم، الحقبة العربيّة والتّركيةّ، ثمّ مرحلة التّواجد الفرنسيّ.

ويتحدّث في عنوان صغير " فضوليّات" "curiosités" عن قسنطينة "الوجهة السّياحيّة"، بداية بالجولات الممكنة، والّتي حدّدها فيما يلي:

- درب "السّيّاح"؛
- جسر "سيدي راشد"؛
- شارع "الهاوية" "Boulevard de l'abime"؛
- جسر "الشّلّالات"؛
- جسر "سيدي مسيد"؛
- "المشتلة"، على بعد 5 كم عن المدينة؛
- حظيرة "بيسي" "Bissy" أو "جبل الوحش"، محطّة إصطياف مع فندق؛ غابة "Boulogne" بمحاذاة المنصورة؛

ثمّ يعدّد هذا الدّليل مختلف جسور قسنطينة:

- جسر "القنطرة"؛
- جسر "Saint Pierre"، طريق "الأقواس الرّومانيّة"؛
- جسر "سيدي راشد"؛
- جسر "الشّيطان"؛
- "شلّالات الرّمال"، الطّريق المؤدّي إلى "سيدي مسيد"؛
- جسر "لامي" "Lamy"، الرّابط بين ضاحية "القنطرة" و"لامي"؛
- جسر "Thière"، بالقرب من ثانويّة "Aumale" (رضا حوحو حاليّا)؛

يُعرّج بعد هذا إلى بعض المعالم وحدائق المدينة، كالمسرح البلديّ، اللّوح الموضوع على عمارة "بنك الجزائر"، والمخلِّد لمعركة قسنطينة سنة 1837 م، وكذلك هرم "Damrémont"، الّذي رُفع في مكان سقوط الجنرال خلال هذه المعركة (المكان المُسمّى la pyramide)، والحدائق الّتي ورد ذكرها خمسة:

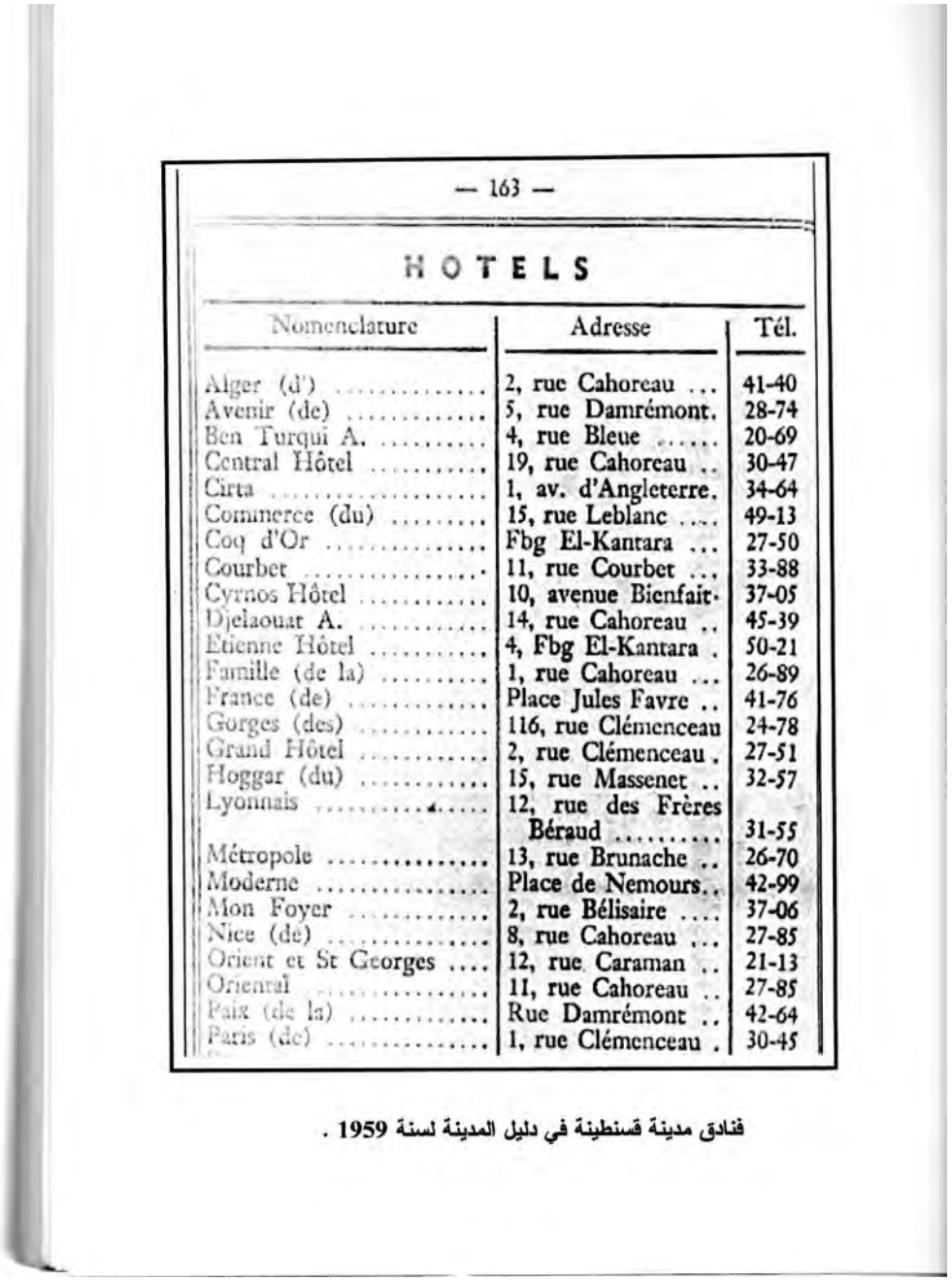

— 163 —

HOTELS

Nomenclature	Adresse	Tél.
Alger (d')	2, rue Cahoreau ...	41-40
Avenir (de)	5, rue Damrémont.	28-74
Ben Turqui A.	4, rue Bleue	20-69
Central Hôtel	19, rue Cahoreau ..	30-47
Cirta	1, av. d'Angleterre.	34-64
Commerce (du)	15, rue Leblanc	49-13
Coq d'Or	Fbg El-Kantara ...	27-50
Courbet	11, rue Courbet ...	33-88
Cyrnos Hôtel	10, avenue Bienfait.	37-05
Djelaouat A.	14, rue Cahoreau ..	45-39
Etienne Hôtel	4, Fbg El-Kantara .	50-21
Famille (de la)	1, rue Cahoreau ...	26-89
France (de)	Place Jules Favre ..	41-76
Gorges (des)	116, rue Clémenceau	24-78
Grand Hôtel	2, rue Clémenceau .	27-51
Hoggar (du)	15, rue Massenet ..	32-57
Lyonnais	12, rue des Frères Béraud	31-55
Métropole	13, rue Brunache ..	26-70
Moderne	Place de Nemours..	42-99
Mon Foyer	2, rue Bélisaire	37-06
Nice (de)	8, rue Cahoreau ...	27-85
Orient et St Georges	12, rue Caraman ..	21-13
Oriental	11, rue Cahoreau ..	27-85
Paix (de la)	Rue Damrémont ..	42-64
Paris (de)	1, rue Clémenceau .	30-45

فنادق مدينة قسنطينة في دليل المدينة لسنة 1959 .

- حديقة قسنطينة؛
- حديقة "Doumer"، أو حديقة "الجمهوريّة"؛
- حديقة "Gambetta"؛
- حديقة "Panis"؛
- حديقة "vallée".

كما يعدّد وكالات سفر المدينة، فنادقها، مطاعمها ومقاهيها، فما ميّز دليل مدينة قسنطينة 1959، هو العدد الكبير للفنادق والمطاعم ووكالات السّفر، كدليل على قيام صناعة سياحيّة، والوجه الآخر للتّغيّرات السّوسيو-اِقتصاديّة المصاحِبة للقرارات السّياسيّة الّتي جاءت إثر مشروع قسنطينة 1958، والّتي اِنعكست على وجه المدينة وقيمها الجديدة.

لقد ظلّ موضع قسنطينة محطّ إعجاب الرّحّالة من العرب والعجم، وإبتداء من سنة 1840 - وبعد أن تأكّد الرّحّالة الفرنسيّون من كتّاب، رسّامين، مدرّسين، مؤرّخين وصحفيّين من الوضعيّة السّياسيّة، وتيقّنهم من الإستقرار النّهائيّ للسّياسة الإستعماريّة في الجزائر - قرّروا إكتشافها، أو إكتشاف "الشّرق البربريّ"،[15] وتعدّدت أسباب هذه الرّحلات بإختلاف وجهات نظر هؤلاء؟؟؟ المشكلة، سواء عن الحقيقة المجاليّة أو الإجتماعيّة أو التّاريخيّة أو السّياسيّة لمدينة قسنطينة، خلال النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر، فهذا "أليكساندر ديماس" "Alexandre Dumas" مثلا، في مؤلّفه " le véloce" (1847) يقول: «... ألقينا صرخة إعجاب جماعيّة تقريبا من الهلع في قعر صخرة مظلمة، وعلى قمّة جبل تظهر مدينة رائعة، شيء يشبه الجزيرة الطّائرة ...»،[16] ويصفها "تشياتشيف" "Tchiatchef" في كتابه " Espagne, Algérie et Tunisie": «تتربّع قسنطينة على صخر جميل، يحيط بها "وادي الرّمال" كحزام من بعيد، تعطي الإنطباع على أنّها قلعة أوروبّيّة بمنازلها وقراميدها، ولا يظهر طابعها الشّرقيّ إلّا بالدّخول إليها، داخل قسنطينة أقرب إلى الطّابع الشّرقيّ من الجزائر العاصمة، ليس لأنّها تحوي آثارا أكثر وأجمل من الهندسة القديمة، ولكن للدّور المهمّ الّذي لعبه العنصر العربيّ من حيث الكثرة، ومن حيث النّشاط التّجاريّ والصّناعيّ، ليس فقط في أزقّة المدينة القديمة، ولكن حتّى في الشّوارع الأوروبّيّة الحديثة».[17]

لقد شكّلت قسنطينة لقاء معرفيّا من خلال كتابات هؤلاء، سواء من خلال تاريخها أو طقوسها أو ممارساتها السّوسيو- ثقافيّة، وبغضّ النّظر عن الفضول الّذي شكّل الدّافع الأوّل لزوّار هذه الحقبة، لا يمكن إغفال رغبة هؤلاء في معرفة المدينة، من خلال الإحتكاك بعوالمها، فما لاحظه "فلوبير" "Flaubert"، و"غوتييه" "Gautier" - على سبيل المثال - شكّل أساسا لما أنتجاه أدبيّا بمجرّد عودتهما إلى باريس؛ حيث كتب الأوّل روايته "Salambo"، وأنتج الثّاني عرضا مسرحيّا أسماه "يهودية قسنطينة" "la juive de Constantine".[18]

AGENCES DE VOYAGES

Nomenclature	Adresse	Tél.
Agence Aérienne et Maritime	10. bd Carnot	63-76
Agence de Voyages	3, bd Mercier	22-38
Agence Portolano	8, rue de Fleury	59-87
Air Algérie - C.G.T.A.	8, rue de Fleury	59-87
Air Algérie (Wagons-lits cooks)	13, rue Clémenceau	34-51
Air Algérie	3, bd Mercier	55-62
Air France	Rue de Fleury	59-87
Air France (Wagons-lits).	13, rue Clémenceau	34-51
Air France (Station départ)	3, bd Mercier	55-62
Cie Gle Transatlantique Agence C.G.T.A. Air Algérie, S.N.C.F., C.F.A.	Place de la Brêche.	24-33
Cie Gle des Transports Algériens (C.G.T.A. - Air Algérie)	Place de la Brêche.	24-33
Cie de Navigation Mixte.	13, rue Clémenceau	49-69
Cook (Wagons-lits)		
Cordina Louis et Fils	13, rue Clémenceau	41-47
Le Borgne (Charles)	1, rue de Fleury	33-07
Portland P.	3, rue Sauzai	28-22
Sté Gle de Transports Maritimes	2, rue Caraman	.....
Syndicat d'Initiative et de tourisme (Touring Club de France)	4, avenue Viviani	38-89
Cie Touache-Pujol - Bureau C.F.A.	2, rue Caraman	

وكالات السياحة و الأسفار في دليل المدينة لسنة 1959 .

IV -الخاتمة:

من خلال القراءة السّابقة لدلائل مدينة قسنطينة، يمكن التّوصّل إلى أنّ السّياسة الفرنسيّة لم تعتمد في توجيه المدينة سياحيّا على موقع قسنطينة وإرثها الحضاريّ فقط، وإنّما عملت أيضا على تغيير المنظر الحضَريّ، وإجتثاث مؤسّسات المجتمع الأصليّ، وإنشاء مؤسّسة تكرّس الحضور الإستعماريّ، وهو ما أجبر المدينة على تحمّل الوظائف الجديدة المُسنَدة إليها، من تسيير محليّ، وخاصّة إدارة منطقة واسعة؛ حيث - وبالعودة مرّة أخرى إلى دليل مدينة قسنطينة 1930 - نجد فصلا كاملا تحت عنوان "قسنطينة فرنسيّة" "Constantine française"، يصف صاحبه المنشآت الّتي بإمكانها أن تشكّل مواقع سياحيّة جديدة، تؤرّخ لحقبة ما بعد المدينة الضّاربة في القدم.

وأوّل ما يميّز الوجه الجديد "تمثال قسطنطين"، الواقع بمحطة القطار، هذا الإختيار الّذي لم يكن عشوائيّا، فمن البديهيّ أن يكون في اِستقبال زوّار المدينة تمثال من الرّخام الأبيض الجميل، وهو نسخة للنّحّات "François Brasseur" عن الأصليّة المحفوظة بكنيسة "Saint Jean de Latran" في روما، ولقد كُتبت على قاعدتها عبارة: «إلى قسطنطين العظيم الّذي أوقف سيرتا من ركامها، بعد أن هدمها ماكسنس وأعطاها اِسمه سنة 313».[19]

وبعد الحديث عن جسور المدينة الّتي أقامتها فرنسا، يجيء ذكر الإنجاز السّياحيّ الكبير، الدّال على أنّ القائمين على المدينة أدركوا أنّها لا يمكنها إلّا أن تكون سياحيّة، ففكّروا في "درب السّيّاح"؛ لتمكين الزّوّار من التّمتّع واِكتشاف أغوار "وادي الرّمال" وصخوره عن قرب.

ولقد كان من الضّروريّ أن تؤرّخ فرنسا للثّغرة الّتي مكّنتها من قسنطينة " la Brèche"، فتحة أحدثها المدفع الفرنسيّ في جدار المدينة سنة 1837م، والإسم الذي أطلقته فرنسا على هذا المكان الواقع بين قصر العدالة والبريد هو ساحة "Nemours"، تحمل اِسم الابن الثّاني للملك "لويس فليب"، مركز المدينة النّابض بالحركة، ومنطلق الشّوارع الرّئيسيّة المؤدّية لأحياء الصّخر القديمة.

في هذه السّاحة رفعت فرنسا تمثال "الدّيك الغالي" "le coq Gaulois"، كتب عليه: «إلى جميع محاربي الحرب الكبرى، إلى كلّ الشّجعان الّذين ندين لهم بالتّتويج بالحقّ والحرّيّة، هذا التّكريم اِعتزاز واِعتراف أبديّ بالجميل»، وعلى الوجه الآخر لتمثال الدّيك كُتب: «وضعت مدينة قسنطينة هذا المعلم سنة 1922م على شرف كلّ أبطال الحرب الكبرى»،[20] وللإشارة، هُدم هذا التّمثال في جزائر الإستقلال، وكأنّه المعلم الوحيد الدّالّ على الإستعمار الفرنسيّ!

وتخليدا لكلّ الّذين قُتلوا في الحرب العالميّة الأولى، شيّدت فرنسا "ضريح الأموات" على قمّة جبل "سيدي مسيد"، ورفعت فوقه صورة أخرى عن "تمثال النّصر" القديم، الّذي يحوي متحف سيرتا صورته الأصليّة، وتحدّيا منها للعمارة العربيّة - وتحديدا قصر "الباي" - بنت مسرح المدينة دائما بساحة "la brèche"، كمركز من رموز العمارة الفرنسيّة، ولخلق وسط آخر للمدينة هي "المدينة الأوروبّيّة".

وفي حدود المركز الجديد اِنتشرت بعض الحدائق "Square Vallée"، ولم تعرف المدينة مجال الحديقة بهذا الشّكل إلّا مع التّواجد الفرنسيّ، فضاء أدّى إلى ظهور قيم ثقافيّة جديدة، ألا وهي "ثقافة الحديقة العموميّة"، إذ عرفت قسنطينة بعدها عددا من الحدائق، والّتي أبرزت مع الوقت صور الطّبقيّة في المجتمع القسنطينيّ: "جنان المركانتيّة"، "جنان الزّواليّة"، أي: "حديقة الأغنياء" و"حديقة الفقراء".

وغير بعيد عن هذه الحديقة "Square Vallée"، اِرتفع تمثال "Lamoricière"، الّذي خُلِّدَتْ عليه كلمات الجنرال الفرنسيّ "vallée"، قائد الحملة

الفرنسيّة على قسنطينة: «سيّدي الجنرال، غدا السّاعة العاشرة صباحا، سنصبح سادة هذه المدينة أو نموت».[21]

ككلّ المدن الجزائريّة، عرفت قسنطينة إعادة تهيئة اِستعماريّة، بدت في كلّ التّغيّرات الّتي أحدثتها في القرنين الـ 19و20، من أجل تحقيق فكرة المدينة العصريّة، وبسرعة تمّ اِعتبار المدينة مركزا لكلّ المؤسّسات المختلفة المتواجدة فوق الصّخرة، أمّا باقي التّوسّعات ما هي إلّا ضواحٍ.

بعد الإستقلال - ومع مغادرة الفرنسيين - اِضطلعت سياسة وطنيّة جديدة بمهمّة مراقبة التّسيير الحضَريّ للمدينة خلال سنوات 1980/1970، فظهر تنظيم مجاليّ كرّس القيمة الرّابطة بين العامّ والخاصّ، وظهرت المعركة الصّغيرة للأكشاك، الّتي أصرّ الخواصّ على زراعتها على حافّتي الشّوارع العموميّة ومحطّات توقّف السّيّارات والنّقل العموميّ في الحدائق، ممّا غيّر المنظر والشّكل الحضريّ القائم.

إضافة إلى ذلك، توسّعت المدينة بشكل عشوائيّ وفوضويّ، نتيجة اِنفلات أدوات التّهيئة والتّعمير الّتي تنظّم وتطوّر المدن، ممّا اِنعكس سلبا على المجال الحضَريّ ووظائفه، وبعد أن كانت الخصوصيّة الطّبيعيّة والتّاريخيّة من أهمّ عوامل الجذب السّياحيّ في قسنطينة، أصبحت هذه الأخيرة تعيش ركودا سياحيّا، فهل توقّفت هذه المجالات عن أداء وظيفتها السّياحيّة؟ وهل هناك علاقة بين تطوّر المدينة وتطوّر المجال السّياحيّ؟ وهل كان للسّياسة الّتي اِنتهجتها الجزائر أثرها على التّوجّه السّياحيّ الحضَريّ؟ هذه الأسئلة وغيرها، سنحاول الإجابة عنها مستقبلا؛ لأنّها تحتاج هي الأخرى للكثير من البحث والتّقصّي.

المراجع

01- بشير التّيجاني، التّحضّر والتّهيئة العمرانيّة في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 2000، ص.16.

02- محمّد الهادي لعروق وعبد العزيز فيلالي، مدينة قسنطينة: دراسة التّطوّر التّاريخيّ والبيئة الطّبيعيّة، دار البعث للطّباعة والنّشر، الطّبعة الأولى، قسنطينة، 1984، ص. 45.

03- Marc Côte, Constantine: Cité antique et ville nouvelle, Édition Média plus, Constantine, 2006, p. 9.

04- Heddar Belkacem, Rôle socio-économique du tourisme : Cas de l'Algérie, Édition Opu Enal, 1988, p. 47.

05- Ibid, p.p. 57-58.

06- Guide de Constantine de 1934, p. 5.

07- Prosper Alquier, Guide de Constantine de1930, p. 67.

08- Du musée guide de Constantine de1930, Imprimerie Paulette et ses fils, Constantine, 1930, p. 6.

09- Prosper. Alquier, Guide Constantine de1930, p.10.

10- Ibid, p.10.

11- Ibid, p.10.

12- Guide de Constantine de1934, Op.cit, p. 9.

13- Ibid, p.p. 14-15.

14- السّيّد الحسيني، المدينة: دراسة في علم الاجتماع الحضريّ، دار المعارف، الطّبعة الثّانية، 1981، ص.131.

15- Nedjma Benachour, Constantine visitée au 19 siècle de l'exotisme à l'observation sociale, Fatima-Zohra Guechi, Constantine: Une ville et des héritages, p.p. 130-131.
16- Prosper Alquier, Guide Constantine de 1930, p.p. 81-82- 98.
17- Nedjma Benachour, Op.cit, p. p.130-131.
18- Prosper Alquier, Op.cit, p. 123.
19- Ibid, p. 133.
20- Ibid, p. 133.
21- zahia Maghnous Dris, L’espace de la brèche entre coupure et suture, Fatima-Zohra Guechi, Constantine: Une ville et des héritages, p. 174.